رأس شمرة أو أغاريت

أنقت الحفريات الأثرية في البلاد الشامية أنواراً كاشفة على تاريخ سورية في عهودها القديمة . وبعثت من رمسها صفحات ماضٍ بعيد أغفلتها السطور وغيبتها العصور ، لولاها لفم علينا تاريخ حقبة طويلة من ماضي بلادنا ، ولجهلنا فضل السلف في تشييد حضارة هذا العالم ، ومبلغ مساهمته في ازدهارها ، وأثره البين في تطور الفكر البشري ونموه ، وقد ساعدت الاكتشافات الأثرية على سبك تاريخ سورية بسلسلة مستحكمة الحلقات ، وصلت حاضر القطر بماضيه في خمسة آلاف سنه متصلة وأثبتت ان سورية كانت خلالها مبعث نور سطعت أضواؤه على البشر في فجر نهضته ، وانها كانت العامل القوي في تقدم الحضارة ونشرها في العالم القديم .

احتلت حفريات رأس شمرة منذ مرحلتها الأولى مقعد الصدارة بين مثيلاتها لخطورة انتاجها ، وبذت غيرها بوفرة وثائقها ، وغزارة فوائدها التاريخية ، وكشفت لنا صفحات مجيدة عن أخبار ديارنا خلال الألف الثالثة والألف الثانية قبل الميلاد . ولا يتسع هذا المقال للاحاطة بجميع فروع هذه الحفريات ودقائق أسرارها ، واين لي أن أجمل في صفحات مابسطه غيري في مجلدات وعالجوه في مئات المقالات ، ولكنني سأكتفي هنا بالاشارة الى خطوطها العامة التي استقيتها من مصادرها حتى لا يفوت قراء مجلتنا أخبار هذه الحفريات التي شملت العالم شهرتها وشغلت المعاهد العلمية أعواماً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رأس شمرة .

هو اسم تل يقع شمالي مدينة اللاذقية وبينهما نحو خمسة عشر كيلو متراً ، وهو مشرف على البحر ويبعد ثمانمائة متر عن مينة البيضاء التي عرفها بحارة اليونان الأقدمون باسم لوكوس ليمن (Leukos Limen) وهو مرفأ مدينة أغاريت القديم ومرساها الطبيعي . وتبلغ مساحة هذا التل نحو (٣٦) هكتاراً ، وسطحه غير منبسط وقدر ارتفاع قمته بـ (٢٢) متراً عن سطح الحقول المحيطة به ، ويستثمر الفلاحون أرضه منذ القديم في الأعمال الزراعية . ولا تدل مظاهر التل على مكانته الأثرية وكانت حقيقته مجهولة الى أن كشفتها الحفريات وأظهرت أنقاض المدينة القديمة التي كانت مشيدة عليه .

أغاريت :

بقي الاسم الحقيقي للمدينة التي اكتشفت في تل رأس شمرة مجهولاً عند الآثاريين والجغرافيين ، وقد اقترح لها بعضهم اسماء مدن كانت في القديم عامرة في هذه المنطقة ثم زال رسمها ولم يبق منها سوى ذكرها ، وما لبثت الحفريات ان وضعت حداً لكل ما توهموه ، وكشفت الوثائق التي عثروا عليها بين أنقاضها اسمها الحقيقي وهو : (أغاريت) ، وانها كانت قاعدة ملك دولة سورية ساحلية وهي مملكة أغاريت ، وأحصت هذه الوثائق أسماء (٩٠) بلدة كانت خاضعة لسلطانها وتدفع المال لخزانتها وتقدم الجند لجيشها . ولم يكن هذا الاسم مجهولاً فقد ورد ذكره بصورة مبهمة في نصوص قديمة عثر عليها في الأقاليم المجاورة كرسائل العمارنة في مصر وبوغاز كوى في الأناضول وفي بعض النصوص الفرعونية . وهكذا يبعث اسم هذه المملكة من جديد ليحتل مكانته في التاريخ بعد أن نسي نحو (٣٠٠٠) سنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحفريات :

أوفد المجمع العلمي الافرنسي في ربيع عام ١٩٢٩ بعثة أثرية برئاسه العلامة الأستاذ كلود شيفر (Claude Shaeffer) للتنقيب عن آثار تل رأس شمرة ودأب في العمل الى عام ١٩٣٩ . وتوقف العمل خلال الحرب العالمية الثانية ثم استأنفت البعثة أعمالها في عام ١٩٤٧ . وقد كشفت الحفريات حتى الآن نحو خمس مساحة التل ، وظهر جزء من أنقاض مدينة أُغاريت وسورها ومعابدها ومدافنها وقصرها الملكي . وعثر في هذه الحفريات على ثلاث طبقات متراكمة مثلت فيها ثلاثة عهود مختلفة ، تتميز كل طبقة عن الأخرى بقدمها ونوع مصنوعاتها ومبلغ ثروتها وصلتها التجارية والاجتماعية بغيرها من الأقطار المجاورة لها كمصر وآسيا الصغرى وأرض كنعان وأشور وكلدان وجزر بحر ايجه وبقية أرجاء حوض البحر المتوسط ، وتملي علينا أنقاض هذه الطبقات تاريخها في الف وخمسمائة سنة .

ضمت طبقة ظهر التل السطحية آثاراً بسيطة من العهود العربية والبيزنطية والرومانية والهلينية واليونانية ، وقد تداخلت آثار هذه العهود بعضها ببعض واختلطت من الأعمال الزراعية حتى تعذر تصنيفها وادخالها في تاريخ هذه المدينة ، بيد انه عثر في جزء من هذه الطبقة على حي مشحون بآثار صناعات السواحل اليونانية وجزرها في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد . يستدل بها أن أُغاريت بقيت حتى قبل زوالها الأخير مركزاً مهماً لتصريف البضائع اليونانية التي عمت بلاد الشرق الأوسط في ذاك العصر .

الطبقة الاولى أو أُغاريت الحديثة :

وهي الطبقة التي تلي مباشرة الطبقة السطحية الآنفة الذكر ، تحوي أنقاض المدينة ومعابدها وقبورها وبعض الآثار المنقولة المعدنية والحجرية والعاجية وأواني وحلي ذهبية مصورة وعدداً من الجعرانات المصرية من عهد الأُسرة الثامنة عشرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكيسر أواني رخام نقش على احداها خاتم الفرعون رعمسيس الثاني وقدراً وافراً من الأواني الفخارية المسينية والقبرصية وعثر فيها على كتابات هيروغليفية مصرية وألواح فخارية عليها كتابة أبجدية مسمارية ورموز بابلية وشومارية وحثية وخورية كتب أكثرها في زمن (نكمد) ملك أوغاريت المعاصر للفرعونين أمنوفيس الثالث والرابع وللملك (سوبيلوليوماش) الحثي . وكشفت الحفريات آثار الحريق الذي دمر أكثر المدينة على أثر زلزال شديد ، ويتفق زمن هذه الكارثة مع ما كتبه (ايملك) ملك صور في رسالة بعث بها الى الفرعون أمنوفيس الرابع يقول فيها : «هدمت النيران أغاريت مدينة الملك والتهم الحريق نصفها ، ولم يعثر على نصفها الاخر» . ويمكن تحديد تاريخ ذلك في سنة ١٣٦٥ قبل المسيح . وتتميز هذه الطبقة بوفرة الآثار المنقولة المصرية ويستدل منها على ان أغاريت كانت خاضعة لسلطان مصر ولذلك حاولت أغاريت التحرر من سيطرة مصر فأعلنت في عام ١٤٤٤ قبل الميلاد العصيان وثارت عليها ، وتظهر آثار هذه الثورة ونقمة الأغاريتيين على مصر بتحطيمهم جميع الآثار المصرية التي كانت في عاصمتهم ، وخلد المصريون هذه الحادثة التاريخية في كتاباتهم حينما ذكروا مآثر الفرعون أمنوفيس الثاني الذي أخمد الثورة بقولهم : «ووصل جلالته الى أغاريت وتغلب على جميع أعدائه ثم عاد مغتبطاً بعد أن ضم هذا البلد الى مملكته» . ونرى مما تقدم ذكره ان أغاريت الحديثة كانت معاصرة للدولة المصرية الحديثة وعاشت في سني (١٣٠٠ — ١٦٠٠) قبل الميلاد .

الطبقة الثانية أو أغاريت الوسطى :

وهي الطبقة التي شيدت عليها أغاريت الحديثة المتقدم ذكرها وعثر فيها على أنواع من الفخار السوري والفخار الكريتي من النوع الذي عثر عليه في (كاهون) في مصر داخل مساكن العمال الساميين الذين استخدموا في بناء اهرام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفرعون (سيزوستريس) الثاني ومدافنه الملكية خلال سني (١٨٨٨ — ١٩٠٦) قبل المسيح . وعثر أيضاً على تمثال صغير للأميرة (شنـ.يت نفرحج) زوج الفرعون الآنف الذكر ، ووجد تمثال ابي الهول قدمه الفرعون (امينمهات) الثالث خلال سني (١٨٠٠ — ١٨٥٠) قبل الميلاد . يضاف الى ذلك أنواع من الأسلحة والحلي يمكن بها تحديد عمر أغاريت الوسطى بين سنة (١٦٠٠ — ٢١٠٠) قبل المسيح .

وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف تفاصيل تاريخ أغاريت الوسطى السياسي تجلى لنا أنها كانت وقتئذ حليفة مصر أو خاضعة لها تبادلها انتاجها الصناعي وتتقبل هداياها الملكية . ونأمل أن تزودنا حفريات المستقبل بمعلومات أوفى تعين على كشف ما خفي علينا من تاريخها .

الطبقة الثالثة أو أغاريت القديمة :

ان تاريخ هذه الطبقة هو أشد غموضاً من الطبقة الثانية لتقادم عهدها ، ولأن الحفريات لم تتناول حتى الآن سوى جزء ضئيل منها ، ودلت الحفريات أن حريقاً عظيماً قد دمر أغاريت القديمة بين سنة (٢٣٠٠ و ٢٤٠٠) قبل المسيح وانه هجرها عقب ذلك سكانها زمناً طويلاً حتى اعتلت أنقاضها طبقة تراب كثيفة يختلف غورها بين المتر والمتر والنصف . وقد ظهرت آثار مثل هذا الحريق في مدن كثيرة معاصرة لأغاريت القديمة منها مدينة جبيل وطروادة الثانية مما يؤكد ان الحريق لم ينتصر على أغاريت بل شمل أكثر أصقاع الشرق الأوسط وخاصة فلسطين ولبنان وسورية وغربي الأناضول وجزيرة قبرص ، وهنالك ما يشير الى أن هذه الحرائق شبت اثر زلزال عنيف ترك آثاره في جميع بلاد شرقي البحر المتوسط وغربي آسيا الصغرى . وكان من أعظم النكبات التي حلت في هذه الديار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولنا مما تقدم أن نلخص مراحل تاريخ مدينة أغاريت كما يلي :

الطبقات	العهد	التاريخ
الأولى	أغاريت الحديثة	١٣٠٠ — ١٦٠٠ قبل الميلاد
الثانية	أغاريت الوسطى	١٦٠٠ — ٢١٠٠ 〃 〃
الثالثة	أغاريت القديمة	٢١٠٠ — ٢٤٠٠ (؟) 〃

وانه ليتعذر علينا الآن تحديد تاريخ بداية مدينة أغاريت القديمة ومعرفة ما كانت عليه قبل عام ٢٤٠٠ قبل المسيح . وقد دلت الاختبارات التمهيدية التي جرت في أعمق الطبقات على وجود طبقتين رابعة وخامسة يتصل عهد أقدمها الى الألف الرابعة قبل المسيح أو العصر الحجري الحديث . ولم تزل الوثائق التي عثر عليها حتى الآن محدودة لا تكوّن فكرة واضحة عن تاريخ تأسيس هذه المدينة . ويرجى أن تكشف لنا حفريات المستقبل تاريخ أغاريت في جميع مراحله من بدايته الى نهايته .

اهم الاكتشافات :

بالإضافة الى مئات الآثار المنقولة المكتشفة في الحفريات وقد دلت على براعة الصانع الأغاريتي وسلامة ذوقه فقد عثر معها أيضاً على منشآت عديدة تثبت مهارة البناء الأغاريتي وتفوقه . ومن أهم هذه المنشآت :

١ — مدينة أغاريت التي كشفت الحفريات جميع أدوار حياتها ومراحل عمرانها ، وتبين من خطط المدينة بأنها أسست على نهج موضوع فرض استقامة طرقها وتقسيم أحيائها وأسواقها الى مربعات تكتنفها الطرق والمنافذ ، ولا يختلف تصميم الدور وقتئذ عن الطراز الشامي المألوف في الأرياف ، وتتألف الدار من باحة مكشوفة يحيط بها بيوت السكن وبقية مرافقها ، وقد يكون لبعض الدور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حمامات خاصة اذ عثر في احداها على حوض حجري للاستحمام يشبه أحواض الحمامات الغربية الحديثة ٠

٢ — وعثر على عدة مصانع دينية أهمها هيكل المعبود (داغون) وهيكل ابنه (بعل) ، ولم تكن معابد أغاريت مقتصرة على العبادة بل كانت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ٠ معاهد ثقافية ودور تعليم شأن جميع المعابد الشرقية الكبيرة ٠

٣ — ان أعظم بناء ظهر حتى الآن في أغاريت هو القصر الملكي وهو من أهم القصور الملكية القديمة التي اكتشفت في هذا الشرق حتى الآن بما كيها في احكام بنائها وسعة أرجائها وتعدد أقسامها ، بنيت جدرانه من حجر نحيت ورصفت أرضه بصفائح حجرية ، ومما يجدر الاشارة اليه وجود مجار مستورة تحت الأرض وداخل الجدران لتصريف مياه الأمطار والأقذار تتألف منها وحدة مع تصميم بناء القصر مما يدل على مبلغ عناية السكان بالنظافة وادراكهم تأثيرها في الصحة ٠

٤ — وعثر تحت أرض بعض غرف القصر والدور الخاصة على عدة مدافن ينزل اليها بسلالم حجرية ٠ وهي في شكل قبو محكم البناء وغاية في الاتقان تشبه المدافن المصرية في ذاك العصر ، وتدل هذه العناية على ان الأغاريتيين لا يختلفون عن بقية الشعوب المعاصرة لهم بتكريم موتاهم وحرصهم على توفير أسباب الراحة والرفاهية لهم وتجهيز القبور بكل ما يفيد الراحل في حياته الثانية ٠ وقد وجدت هذه القبور خالية لأن اللصوص سطوا في غابر الأزمان على هذه المدافن ونهبوا النفائس التي وصلت اليها أيديهم بعد ان حطموا ما زهدوا في حمله ٠

الوثائق المكتوبة :

عثر في معابد أغاريت وقصرها الملكي على عدد كبير من الوثائق تشتمل على أناشيد وفرائض دينية ونصوص أدبية ومراسلات سياسية وادارية ومعاملات مالية وصكوك عقارية وتجارية وعقود اجتماعية وبيانات بأسماء أشخاص ومدن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعقاقير وغير ذلك . كتبت جميعها على ألواح آجر برموز مسمارية باللغات الشومارية والبابلية والحثية والحورية ، وكتبت الكثرة منها بلغة مجهولة تظهر في التاريخ لأول مرة . وما شاع خبر اكتشاف هذه اللغة الجديدة في الأندية العلمية حتى انبرى لها علماء اللغات القديمة يحلون رموزها . وقد توفق بعد جهد سنين الأستاذ (هنس باور) (Hans Bauer) الى حل معظم رموزها وتفهم أكثر معانيها ، وقد ساهم الأستاذان دورم (Dhorme) وفيرولو (Virolleaud) بهذا الجهد وكان لها الأثر المحمود في بعث هذه اللغة وادخالها في عداد اللغات السامية المعروفة .

ومن أثمن ما عثر عليه في القصر لوح صغير كتب عليه (أبجدية رأس شمرا) تتكون من ثلاثين حرفاً برموز مسمارية سهلة التركيب وهي أقدم أبجدية معروفة الى يومنا هذا ، وقد كتبت هذه الأبجدية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ويعتبر اكتشافها أعظم اكتشاف أثري جرى منذ مطلع القرن العشرين . وقد حملت يومئذ الأسلاك البرقية نبأ هذا الاكتشاف الى جميع أمهات صحف العالم التي نشرت خبره في أبرز مكان منها . فلا عجب ان أثارت هذه الأبجدية اهتمام العالم واعجابه ، وهي أجل ابتكار ابتدعه الفكر البشري وجعلت القراءة والكتابة يتناول الأحداث والشيوخ على السواء ولولاها لبقيتا وقفاً على فئة قليلة من المحترفين اكتسبتها بعرق الجبين والجهد الطويل ، وهي بحق معلمة الانسان الأولى وجديرة بتكريم البشر وتقديسه ويحق للديار الشامية ان تعتز بهذه المعجزة التي أتى بها أحد أبنائها فعم نفعها العالم أجمع باستثناء الصين التي حافظت على كتابتها التقليدية القديمة المكونة من (٤٠٠٠) حرف .

ويسرنا ان نردد ما كتبه بحقها مكتشفها الأستاذ كلود شيفر (Cl. Shaeffer) في تقريره عن الحفريات حيث قال : « ان شعباً أنتج مثل هذه المفخرة يستحق أن نبادله الجميل بمثله ويحق له أن يتبوأ مكانة مرموقة في تاريخ العالم » .

جعفر الحسني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net